ذكرى وفاة

الشيخ مصطفى عبد الرازق

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى ١٥ فبراير الحالى تم سنوات خمس على وفاة المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق . وقد أحببت ، فى هذه المناسبة ، أن أبعث « للرسالة » بهذه الكلمة ، لا عن مصطفى عبد الرازق الأستاذ فى الجامعة ، أو الوزير ، أو السياسى ، أو شيخ الأزهر . وإنما عن مصطفى عبد الرازق . فمصطفى عبد الرازق ، بصفاته ، وخصائصه ، ومميزاته ، هو الذى أريد أن أكتب فيه هذه الكلمة

* *

كانت أبرز صفات مصطفى عبد الرازق : رقة العاطفة ، والتواضع ، وحب الخير ، والاعتداد بالنفس

تحدث بعض تلاميذه — وقد تولى منصبا جليلا فى القضاء — فقال : كان الشيخ مصطفى يدرس لنا فى الأزهر مادة « الإنشاء » فوجد واحدا من طلبته زرى الهندام ، ولاحظ بعض إخوانه يكاد يميزه بذلك . وظن طلبة الشيخ أنه غير متنبه لما يجرى بين هذا الطالب وإخوانه . ولكنه فى أثناء الدرس ، تطرق إلى موضوع القيمة الذاتية للفرد ، وأنها لا تخضع لمقياس الثروة والجاه ، وأن المال والثياب لا تجعل الرجل عظيما ، وإنما قيمة الرجل وعظمته فى فضائله وعلمه وآدابه

وكان ليقظة الشيخ ، ولطف توجيهه لأبنائه ، وعدم إشارته أى إشارة للطالب الفقير ، أكبر الأثر فى تقويم تلاميذه وإدراكهم لما يقصد ، واستقامة نفوسهم بعد ذلك ، وصدق مودتهم بعضهم لبعض

وقص تلميذ الشيخ فقال : وشكا واحد من طلبة الشيخ مصطفى إلى صديق له قلة ماله ، وأنه يخشى أن تقطعه الحاجة عن طلب العلم ، واستشاره ، فقال له صاحبه ، بعد تفكير ، ليس لك إلا أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق . فقصد الطالب المحتاج ، بعد تردد ، بيت شيخه ، وكان لا يزوره ، فلما أقبل على الشيخ ، وفى مجلسه جمع كبير من العظماء وأهل المكانة ، قام الشيخ لاستقباله مرحبا ، وقدمه لضيوفه مادحا له ، ذاكرا نبوغه فى الطلب وحسن استعداده وذكائه ، ثم أدرك الشيخ بعد قليل ، من حياء تلميذه وتهيبه ، أنه يعالج فى نفسه شيئا ، فاستأذن ضيوفه واختلى بتلميذه ، فلما سمع منه قصته قال له : أمهلنى أسبوعا ولا تجزع ، وعد إلى بعده

وبعد أسبوع من الطالب على شيخه فوجده قد وفق لتعيينه فى وظيفة أطمأنته على مداومة الطلب . وأبلغه ذلك وكأنه يعتذر عن تقصيره

وكثيرون من أبناء الشيخ وخاصته يعرفون عشرات من مثل هذه الحادثة

* *

وعندما عاد الشيخ مصطفى عبد الرازق من فرنسا فى سنة ١٩١٤ وكان شقيقه المرحوم حسن باشا وكيلا للديوان الخديوى اختير سكرتيرا لمجلس الأزهر الأعلى . وحدث فى إحدى الجلسات أن اشترك فى مناقشة المسائل المعروضة ، وتأثر بعض أعضاء المجلس من مناقشته ، أو من أسلوبها ، فقال له المرحوم حسن باشا جلال ، وكان عضوا بالمجلس : ياشيخ مصطفى ، أنت سكرتير ، ولست عضوا معنا . أنت تكتب ما نقول ولكذلك لا تشترك فى المناقشة . فسكت الشيخ قليلا ، ثم قام ، ولم يتكلم فأخذ ورقة ، وأقفل درج مكتبه ، وذهب إلى بيته ولم يعد للازهر . فلما عرف شقيقه حسن باشا ما حدث ، اتصل بحسن باشا جلال معاتبا ، فقال له : إن مصطفى ابنى ، وقد أردت توجيهه وإفادته ؛ ومع ذلك سأجيء إليكم لأسترضيه ، وأزيد فى توجيهه وإفادته . وزار جلال باشا بيت عبد الرازق ، ثم عاد الشيخ مصطفى سكرتيرا للمجلس

وقد قص على هذه القصة من كان يحضر مجلس الأزهر الأعلى فى ذلك الوقت

* * *

وقص على الشيخ ، يرحمه الله ، هذه الواقعة ، قال

كان أبي رحمه الله ، وأنا أطلب العلم في فرنسا ، يرسل إلي في أول كل شهر نفقاتي وكانت تصلني في موعد لا يتخلف . وفي شهر من الشهور تريثها في موعدها ولم ترد ، وبقيت أنتظر يوما بعد يوم ، حتى قل ما بيدي من المال قلة شديدة . وكنت شديد الحرص ألا يعلم إنسان ما أنا فيه . فلما خشيت أن يعلم أمري قصدت متسللا إلى السوق أبحث عن أرخص طعام في ذلك الوقت أشتريه بما بقي معي من فضلة مال ، فكان أرخص الأشياء الوز ، فابتعت منه كمية كبيرة بمال قليل ، ووضعتها في حجرتي ، وجعلت أنفرد فيها وقت الطعام لآكل منه ثم أدركت بعد ذلك أني تركت مسكني إلى آخر ولم أبلغ البنك ذلك . فلما ذهبت إلى البنك وجدت نفقاتي فيه من موعدها ، ولكنه لا يستطيع إبلاغي وحمدت الله أن ستر لي ولم يعرف أحد كيف قضيت أيامي تلك

وفي سنة ١٩٣٦ — على ما أرجح — اختير رحمه الله ممثلا لمصر في مؤتمر المستشرقين . وقبل سفره بأيام ، قصدت إليه من جريدة « البلاغ » أتحدث إليه في سفره ومهمته ، وموضوع بحثه . فلما تحدث إلي في ذلك بما كفاني طلبت منه صورته لأنشرها مع حديثه ، فعند ذلك رأيت وجهه قد كسته حمرة وقال : وهل أنا رجل كبير حتى تنشر صورتي في الصحف ... ؟ ومع أني حاورته في ذلك محاورة شديدة والححت عليه إلحاحا شديدا فإنه غلبني بقوله : أرجوك أن تقدر رغبتي وتعفيني من هذا الطلب . فأعفيته وقد زاد إعجابي به وحبي له

. . .

ولكن هذه الصفات نفسها ، من الحياء ، والتواضع ، ورقة العاطفة ، وحب الخير ، وهي كلها فضائل ، كانت سببا في متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ للأزهر . وتسميري بكلمة « متاعب » فيه كثير من التساهل ، وعندما يكتب تاريخ هذه الفترة ، التي قضاها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر ، سيعرف الناس أي ظلم ، وأي مضض ، لقيه الشيخ في مشيخة الأزهر ، ليعد ، أو تناقض ما بين طبيعته وبيئته إذ ذاك

ذهبت إليه ، بعد عودته من الحجاز ، وكان أمير الحج في سنة ١٩٤٦ وقبل أن يؤوب إلى مكتبه ، وكان في نفسي كثير من الضيق ، بسبب أشياء ظالمة كتبها عنه رجال من شيوخ الأزهر ، فأخبرته بها وقلت له : إن هذا الذي أحدثك به ، كتبه القوم بأسمائهم وأعلنوه على الناس ، وهو متداول بينهم مشهور . ولولا ذلك ما حدثتك به . فغضب رحمه الله حتى اضطرب ، وفارقه أنسه ، وظهر عليه الضيق حتى أشفقت عليه . ثم قال بإصرار وحزم : ان أسكت على ذلك

وبعد أيام رجع إلى مكتبه ، وجاء إليه الشيوخ الذين كتبوا فيه ما كتبوا ، وكان قد قرأه ، فاستقبلهم مرحبا ، وآنسهم ، واستبقاهم ، وردهم إلى باب حجرته شاكراً ، مكرراً شكره

* * *

وقد عرفني الشيخ ، وعرفته دهراً طويلا ، وأحببته ، وكيف لا أحبه ؟ ثم وقعت في نفسه نحوي جفوة لم أدرك أسبابها إلا بعد موته . فعسى أن يغفرها الله لي ، وأن يغفرها لي الشيخ أيضاً ؛ فقد كان يغفر ، حتى اظالميه

* * *

هكذا كان الشيخ مصطفى عبد الرازق في شبابه ، وهكذا كان في كهولته وشيخوخته

رجل وهبه الله أجل هباته من الجاه ، والمال ، والمجد . ووهبه أجل هباته من الخلق الطيب والحياء الجميل ، الذي يزيد صاحبه رفعة ، ومهابة ، ومحبة . وجعل حياته كلها مثلا كريما للعمل الخير الدؤوب الذي يصدق أن يقال في صاحبه إن يسراه لا تعرف ما تقدمه يمينه

من أجل ذلك كان فقده موجعاً أليماً ، ومحبته باقية في قلوب الذين عرفوه فأحبوه ، وأيقنوا أنه من طراز قل أن يوجد في الرجال

محمد السرفاوي